مسؤول عن مشاريع ثقافية. كما كانت مفاجئة لمن لا يودون سماع أي نقد. أولئك الذين يعتبرون أن المشهد الثقافي عال العال ولا ينقصه شيء. كل ذلك دفع صاحب هذه السطور إلى كتابة مقال تعليقاً على كلمة القطان («عمر القطان: بكائية متأخرة... ولكن!» ـ الأخبار 2016/10/26) غرضه إثارة الحوار والإضاءة على تساؤلات كانت في محلها. وبالعودة إلى المقال الذي أثار جدلاً عند نشره، كان لا بد من التواصل مع عمر القطان لإجراء حوار موسع معه حول كلمته ـ محل النقاش ـ والعديد من القضايا في المشهد الثقافي الفلسطيني

تنسَ أن المجتمعات بحاجة إلى المدن المركزية الحيوية كما هي بحاجة إلى قراها ومدنها الصغيرة. على سبيل المثال، ما كانت السينما لتولد لولا المدينة المركزية الغنية. أعود هنا إلى ماركس والفكر الجدلي الذي يتيح لنا فهم ديناميكية تطور الأحداث واستثمارها لمصلحة الحرية والعدالة والازدهار. إذا وقفنا فقط أمام ثنائيات جامدة مثل المدينة/ القرية، الطبقة الوسطى/ الطبقة العاملة ولم نر احتمالات تطورها واندماجها، فستغيب عنا حينئذ جميع التناقضات وإمكانات التغيير، التي هي في صلب عملية المراقبة والتحليل، في الأدب الروائي مثلاً وفي الإبداع بشكل عام، ولمَ لا، في صلب الفكر الثوري التقدمي؟ هذا لا يلغي أننا كمؤسسة حريصون جداً على الامتداد الجغرافي واللامركزية في توزيع مواردنا وحتى في أسلوب اتخاذ القرارات. عدد أعضاء «مركز الطفل» في مدينة غزة 11000، لكن خدمته الممتدة تصل إلى أكثر من 3500 طفل في أرجاء القطاع كافة. «مركز المعلمين» في قرية نعلين قرب جدار الفصل العنصري ومثله العديد من منتديات المعلمين في الناصرة والخليل ودورا وجنين وغزة وغيرها، تشكل امتداداً أساسياً لعمل برنامج البحث والتطوير التربوي. أما النشاطات التي يدعمها أو ينظمها «برنامج الثقافة والفنون»، فتمتد من الأغوار إلى هضبة الجولان، فحيفا والقدس وبيروت، عدا عن لندن والعديد من المدن حول العالم.

■ هناك من يشير إلى خلل بنيوي عميق في عمل المؤسسات الأهلية، ينطلق من السنوات الأولى لـ«اتفاقية أوسلو» وما تبعها من تفريخ لمؤسسات أهلية كثيرة اشتغلت بدون استراتيجيات وطنية وبدون أي أساس لدولة مدنية ذات سيادة، ما رأيك بهذا الطرح؟

ربما، ولكن كيف نعمل ضمن استراتيجيات وطنية والمجتمع منقسم على نفسه وقابع تحت الاحتلال؟ هذه مسؤولية أكبر بكثير من أن نحمّل وزرها على أكتاف قطاع واحد.

■ بالرغم من النشاط الثقافي، إلا أن فلسطين لا تزال تفتقر إلى سياسة ثقافية واضحة وضاغطة، تكون بمثابة مرجعية، تضع الأطر والتوجهات وتركز على الأولويات الوطنية، ماذا ينقص المشهد كي يحصل ذلك؟

اسمح لي بأن أعترض على لغتك، فهي تشبه لغة الستالينية. لا نريد سياسات ضاغطة ولا أطراً ولا مرجعيات، بل قوانين ديموقراطية تسمح للتعليم والثقافة بأن ينعما بالحرية والاستقلالية التي تؤمّن لهما شروط الإبداع والتحرر. لكني أشاطرك الرأي في منحى أساسي كنت قد أشرت اليه في كلمتي ويتعلق بضرورة تقوية أسس التعليم المهني والحرفي في مجالات الفنون. لقد حان الوقت لتكريس الجهود لإنشاء المؤسسات والبرامج الوطنية التعليمية في الفنون، ابتداءً من الحضانات حتى المستوى الجامعي، على غرار المعهد الوطني للموسيقى.

■ برأيك، كيف يمكن تعزيز الإنتاج الثقافي من ناحية النوعية ومن ناحية ردم الهوّة بينه وبين الشارع والمواطن العادي؟

هذه الازدواجية خطيرة بعض الشيء. الشارع ليس بالأحرى أن يكون «أفضل» من المثقف، أو أجدر بالاهتمام منه. لا تنس أنّ «الشارع» قد يكون مصدراً للعنف واللاعقلانية والفاشية، مثلما بإمكانه أن يكون حاضنة لثقافة شعبية رائعة. ما أشرت إليه في كلمتي هو ضرورة الوعي للغة التي نستعملها كي تكون أكثر تأثيراً على المشاهد والقارئة والمتلقية وأن تخاطب آلامها وهمومها بشكل أكثر جرأة وأقل إبهاماً.

■ في السنوات الأخيرة، شهدنا بعض التجارب الفنية تتجه إلى التمويل الإسرائيلي، في ظل تنصّل السلطة الفلسطينية من دعم أي فنان من الأراضي المحتلة عام 48، وتواضع قيمة المنح من المؤسسات الفلسطينية الأهلية، ألا يدفعكم ذلك إلى التفكير في إنشاء «صندوق للثقافة الفلسطينية» عوضاً عن إفساح المجال لمحاولات أسرلة الفلسطيني الذي يستخدمه الاحتلال لغسل صورته في الخارج؟

نحن لا نعترف بالحدود السياسية في تعاملنا مع الفلسطينيين. منذ البداية، ندعم المعلمين والفنانين والأطفال والشباب، بغضّ النظر عن خلفياتهم أو مكان إقامتهم، بما في ذلك فلسطين المحتلة عام 1948. وهذا الكلام صحيح منذ أن موّل والديّ نشر «ديوان الأرض المحتلة» الذي حرره أحمد الخطيب في دمشق في نهاية الستينيات على ما أذكر، وكان أول «طلة» لشعراء «الداخل» في الوطن العربي. أما ما يفعله الأفراد والمؤسسات (المستفيدة من التمويل الإسرائيلي) فالأمر راجع لضمائرهم، ويجب أن يتحملوا مسؤولية أعمالهم، مع العلم بأني أعارض كل محاولات عزلهم أو مقاطعتهم، وأشجع من لا يتفق معهم أن يعبر عن رأيه بشكل ديموقراطي غير إقصائي. نحن مجتمع مشحون بعدائية غير عقلانية، وأنماط عاطفية في حواراتنا، وعلينا كمثقفين أن نصرّ على حق الفرد بممارسة خياراته السياسية والأخلاقية والدفاع عنها من دون خوف، على أن ننتقدها نحن ونرد عليها من دون تهديد ووعيد. وهذا أحد أسباب تحفّظي على بعض مبادرات «المقاطعة الثقافية»، لأني أرى في بعضها ما يشبه الإقصاء والموعظة أكثر من الحوار الديموقراطي.

■ كيف تنظر إلى الحالة السياسية الراهنة في فلسطين، وأنت مثقف وناشط ابن عائلة خسرت حياتها وأرضها في يافا؟

عائلتي اليافية من البورجوازية الصغيرة التي كانت تملك القليل قبيل عام 1948 وكان جدي أمياً ولم يكن يملك منزل العائلة بل كان يستأجره. ما خسرته عائلتي ككل الفلسطينيين هو حياتهم، كما تفضلت، في ظروف سياسية لم يكن فيها ميزان القوى لمصلحتنا على الإطلاق. وهذا الوضع لا يزال موجوداً اليوم. لكن من جهة أخرى، ها هو الشعب الفلسطيني أشرف على أن يكون الأغلبية السكانية في فلسطين التاريخية رغم كل محاولات تهجيره، وها هو لا يزال ينبض بالحياة. المهم أن نستفيق على أهمية الفكر والوعي والتعليم والحرية لكي ننتج مجتمعاً ليس قادراً على الصمود فحسب، بل على خلق حاضر ومستقبل أفضل لكل شعوب المنطقة، بما فيها «الشعب اليهودي» القاطن في فلسطين. مستقبل قائم على العدالة والمساواة والديموقراطية والحرية، لا على الاستعمار والعنصرية والحروب الأهلية التي استوطنت في المنطقة على يد الحركة الصهيونية والحركات والدول الرجعية والطائفية. لا تنسوا الميثاق الوطني الفلسطيني الرائع، وهو نتاج الحوار الديموقراطي في داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، الذي كان ينادي تماماً من أجل تحقيق مثل هذه الأهداف المثالية.

■ هل كانت الكلمة بمثابة مقدمة مراجعة وإعادة تقويم وربما تغيير في «مؤسسة عبد المحسن القطان»؟

الأمور التي طرحتها في كلمتي تمت مناقشتها طويلاً بما في ذلك في أدبيات المؤسسة وفي ما نشرته أنا عبر السنين. لكن ما هو مؤكد أننا لا نتراجع أمام المصاعب، وإن التزامنا لأهدافنا التزام مطلق. أما الشكل الذي قد يتخذه دعمنا، فإذا لم يتغير ويتجاوب مع تغير الأوضاع التاريخية، فسنكون غير جديرين بالقضية الفلسطينية وشعبها الباسل. أيضاً، إننا مجرد مؤسسة أهلية مدعومة من عائلة تظل محدودة الموارد ويجب أن تخطط وتتصرف على هذا الأساس وأن تولي الأهمية القصوى لنوعية عملها قبل كميته.

■ كانت لك انطلاقة لافتة في عالم السينما مع فيلم «أحلام في الفراغ» (1991). كما أنتجت قائمة من الأفلام؛ آخرها «زنديق» (2009) الذي أخرجه ميشيل خليفي، قبل أن تنخرط كلياً في التنشيط الثقافي، هل سرقتك الإدارة الثقافية من الإنتاج الفني، وهل هناك عودة سينمائية قريبة؟

ربما. لا أعلم. قررت اعتزال السينما لأسباب عدة؛ منها ما له علاقة بما آل اليه مجال السينما والبيئة الثقافية في فلسطين بعد «أوسلو» وفي العالم بعد هيمنة الليبرالية وانعدام الفكر التقدمي. كانت ولا تزال لديّ أيضاً بكل صراحة شكوك عديدة عن موهبتي، ولكن العنصر الحاسم كان نجاح مؤسسة القطان وما ترتب على هذا النجاح من احتياجات مالية إضافية، ما دفعني إلى الانضمام إلى شركة العائلة في الكويت والمساهمة في إعادة إحيائها من أجل تحقيق مصادر مالية جديدة لدعم المؤسسة وغيرها من المؤسسات الثقافية، مثل «المتحف الفلسطيني» الذي أرأس فريقه منذ أربع سنوات ونيف. أظن أنّ لكل إنسان مصيره، وعليه أن يستثمر في نقاط قوته، ويجهد بشكل واع في مشروعه، من دون خوف أو تردد ومع تحمل مسؤولياته كاملة. هكذا قام والدي ووالدتي بتربيتنا، وأرجو أن أكون قد احترمت هذه المبادئ النبيلة حتى الآن في عملي.

سينما

«أسبوع الفيلم الإسباني» تشريح أرض الغروب القاصية

علي وجيه

التعاون بين «معهد سرفانتس» في بيروت والسفارة الإسبانية في لبنان و«جمعية متروبوليس» لا يتوقف عن الإثمار. بعد «مهرجان السينما الإيبيرو – أميركية»، يأتي «أسبوع الفيلم الإسباني» في بيروت (14 – 20 تشرين الثاني/ نوفمبر). 6 أفلام من إنتاج عامي 2013 – 2014، إضافة إلى شريط من عام 2010، «استطاعت أن تستحوذ على اهتمام الجماهير والنقّاد الدوليّين» كما جاء في البيان الصحافي الصادر عن المنظّمين. التيمات متنوّعة، تجعل من العدسة مبضعاً لتشريح «أرض الغروب القاصية». «كلّهم موتى» (2014) لبياتريس سانشيز افتتح الأسبوع أمس. فيلم عائلة عن نجمة روك عرفت الشهرة في الثمانينيات. ترهب الخروج من البيت، وتعيش باضطراب مع ابنها المراهق ووالدتها المكسيكية المؤمنة بالخرافات. بعد «عيد الموتى»، يظهر شقيقها المتوفّى عند الباب. يدخل الحمّام، ويتخذه مكاناً للإقامة. نحن في مدريد البانك وحركة الموفيدا، التي أخرجت بيدرو ألمودوفار وإيفان زولويتا الحاضر بتأثير فيلمه «نشوة» (1979). مزيج مربك بين الواقعية السحرية وخوارق الطبيعة، بين الكوميديا السوداء ومآسي الفاميليا، للدعوة إلى الخلاص والتصالح مع الماضي. في باكورتها الروائية الطويلة، تفلح سانشيز في ضبط الأداء، ومنع البنية من الانزلاق إلى الفوضى. تضيف نفسها إلى واعدات السينما في بلادها، بترشيحي أفضل مخرج صاعد وأفضل ممثّلة رئيسية، في جوائز غويا 2015 (ما يعادل الأوسكار في إسبانيا). كذلك، حاز الشريط أربع جوائز في «مهرجان مالقة للفيلم الإسباني 2014»، من بينها جائزة أفضل ممثلة، وجائزة لجنة التحكيم، وجائزة أفضل موسيقى تصويريّة. لا نغادر الحقبة والتيمة في «الأهوار» (2014) لروبرتو رودريغز، الذي يُعرَض الليلة. السينمائي الإشبيلي (1971) يعود بفيلم جريمة بديع الصنعة والسينماتوغرافيا والأداء. محققان مختلفان في كلّ شيء، يلاحقان قاتلاً متسلسلاً في قرية جنوبيّة نائية. الأول شابّ تحرّري مناوئ لتركة فرانكو، فيما ينتمي الثاني الأكبر سنّاً إلى الحرس القديم. يمتدّ التباين إلى أسلوب الحياة، والتعامل مع النساء، وحتى النوم والصحو. يقودان السرد حتى النهاية، ليوحيا بالكثير عن إسبانيا الجديدة: السياسة والمبادئ وأشباح الماضي وأسئلة المستقبل. رودريغز لا يشيطن الآخر، متكئاً إلى سيناريو متماسك، أنجزه مع كاتبه المفضّل رفائيل كوبوس. يدعو إلى الخلاص من مخلّفات الدكتاتور ومراعاة ضحاياه بعقل تصالحي، من دون التهاون مع المجرمين. نال الفيلم 10 جوائز «غويا» عام 2015، من بينها أفضل فيلم، وأفضل مخرج، وأفضل ممثل رئيسي. خطف جائزة الجمهور في حفل توزيع جوائز السينما الأوروبية 2015، وحقق حضوراً طيّباً في «مهرجان سان سباستيان السينمائي الدولي» عام 2014.

في «الماس الأسود» (2013 – 11/16)، يلاحق ميغيل ألكانتود (1971) تجارة مواهب كرة القدم، من خلال رحلة مراهقين من مالي إلى مدريد. هما ساعيان إلى الهروب من الفقر، عبر احتراف اللعبة، غير عالمين بما ينتظرهما في العالم الجديد. سرعان ما يتحوّل الحلم إلى كابوس عبوديّة، بسمات العصر الحديث وخرق قوانين الفيفا. شريط رياضيّ يقارن مواهب القارّة السمراء بماسها الثمين. يتناول قضيةً تزداد أهميةً في بزنس الملاعب والصالات، كما فعل الوثائقي «أكاذيب كرة القدم» (2010) لباف أكوتو. في سجلّ الفيلم، جائزة الجمهور في «مهرجان مالقة للفيلم الإسباني» عام 2013. أغوستي فيلا (1961) يغوص في أزمات عائلة كتالونية برجوازية في «الناموسية» (2010 - 11/17). كوميديا رومانسيّة فازت بجائزتين في «مهرجان كارلوفي فاري السينمائي الدولي» عام 2010. وفي «الشباب الجميل» (2014 – 11/18)، يتابع خايمي روزاليس حكاية حبيبين، يكافحان للعيش مع رضيعهما تحت وقع أزمة اقتصادية طاحنة. السينمائي البرشلوني (1970) يعوّل على قدرات أبطاله. يصوّر بأسلوب وثائقي، محققاً روائياً حميمياً أقرب إلى الجمهور من عناوينه السابقة. عُرِض العمل للمرة الأولى ضمن قسم «نظرة ما» في «مهرجان كان السينمائي» عام 2014، وفي رصيد صانعه جائزة «الفيبرسكي» من المهرجان نفسه عن «ساعات النهار» (2003).

فرناندو فرانكو يستغلّ خبرته في التوليف لإنجاز باكورته «جريحة» (2013 – 11/19)، الذي يدور حول «آنا» المصابة باضطراب الشخصيّة الحدّي. التصوّر الأولي للمشروع ذهب باتجاه الوثائقي، إلا أنّ فرانكو حوّله إلى روائي، إثر علمه بتأزّم المصاب أمام الكاميرا. حصد الفيلم «غويا» أفضل مخرج صاعد، و«غويا» أفضل ممثّلة عام 2014.

يشكّل «زهور» (2014 – 11/20 – س: 8) تعاوناً إخراجياً آخر بين جون غارانيو (1974) وخوسيه ماري غويناغا (1976)، إثر عناوين ناجحة مثل «لمدّة 80 يوماً» (2010). تنقلب حياة «آن»، عندما تبدأ بتلقّي الزهور بشكل دوري من شخص مجهول. ميلانكوليا عن الفقد والأمل والحب، حصدت جائزة السينما اللاتينية في «مهرجان بالم سبرينغز السينمائي الدولي» عام 2015. للفيلم أهميّة سياسيّة أيضاً. إنّه أوّل فيلم إسباني ناطق باللغة الباسكية، يمثّل البلاد في السباق على أوسكار أفضل فيلم أجنبي عام 2015، وينال ترشيحاً لـ «غويا» أفضل فيلم.

* «أسبوع الفيلم الإسباني»: حتى 20 تشرين الثاني (نوفمبر) . «متروبوليس أمبير صوفيل» (الأشرفية . بيروت) . جميع العروض تبدأ عند الثامنة مساء ـ للاستعلام: 01/204080

«كلّهم موتى» لبياتريس سانشيز افتتح المهرجان أمس